ميّ المتهمة

بقلم السيدة جيهان غزاوي عوني

حول كتاب «ميّ في حياتها المضطربة»

«في سبيل نهضة ادبية صحيحة» قرأت هذا العنوان الضخم في اول صفحة من مجلة «الحكمة» في الشهر المنصرم بقلم جميل جبر، وكدت أمر به مرالكرام لاجتازه الى الصفحة التالية لولم يعلق نظري عفواً بهذه الافتتاحية التي تلته: «حان للكاتب اللبناني ان ينطلق من جوه الضيق فيطل على العالم بنتاج، إن تُرجم **ما خجل منه، ولا تنكر له**، حان ان يطمح لنيل جائزة نوبل للآداب ولو من قبيل **الطموح للطموح**.»

وتلاعبتْ على شفتيّ ابتسامة صغيرة هي اقرب الى الرثاء – لامثال هؤلاء الرسل – منها الى الغيرة على هذا التراث الكبير بعدده، الفقير بقيمته. هذا التراث الممسوخ، المرتجل، الذي نخلفه للجيل المقبل، دون ان نراعي في ذلك حرمة الادب الحق، أو ذمة العطاء الخالص، فنقدمه لنشء جديد قد يحاسبنا في المستقبل حساباً.. اذا لم يكن عسيراً فهو محسوب علينا في هذه الحقبة الحساسة من الزمن **نخجل به اي خجل، ويتنكر لنا ايا تنكّر**، اذا لم نحسن التدقيق فيه، وننتقن تنقيته من الشوائب كهذه العفوية الصاخبة التي وطئت ساحة فما تركت مجلىً من مجاليه إلا تخطته فافسدت ريحه.

وطافت بخاطري اسماء براقة لكتب عديدة لفظتها المطابع اللبنانية منذ سنوات قلائل حتى يومنا هذا فلم أجد – ما استشهد به – اجدر من كتابيْ ترجمة حياة ميّ (مي وجبران، ومي في حياتها المضطربة) اللذين دبجتهما براعة الاديب جميل جبر نفسه في انفلاتة من انفلاتات الالهام وطفرة من طفرات سطحية البسيكولوجية، فاذا هذا التشهير بالاديبة الكبيرة واذا هذا التعريض بكرامتها؛ واذا بي اقرأ ذينك الكتابين فما اجد فيهما نفس مي الشماء التي عرفناها في كل ما كتبت حتى في الحزين منها. وما يطالعني وجهها النبيل ذو الطابع الطلق، ولا ميزاتها الفذة ولا شخصيتها المستقلة وانما ارى فتاة عادية بل دون العادية بكثير. تبدو لنا منذ النشأة كسيرة القلب محطمة النفس، ذليلة الوضع، قد سدّت بوجهها مسالك الحياة، ليس لها من الصفات المميزة والقوى التربوية ما يربأ بها عن الهبوط الى مستوى العوانس – الخاسرات المعقدات – في سني اليأس.. اما صفاتها الكمالية الموروثة واما ادبها الرفيع، ومكانتها، وثقافتها، وكبر نفسها، اما هذه جميعاً فليس لها في اعتبار المترجم من البسيكولوجية الحقة شيء

اجل، لقد قرأت الكتابين في حينهما، وسكت على مضض كنت أغص به بين الحين والحين. وما ذلك إلا لكي لا أثير ضجة حول الكتابين وهما لما يزالا في السوق قيد البيع ورحت انتظر آراء النقاد فيهما فلم ارجع بطائل، اللهم إلا ببضعة سطور لبضع صحف كانت غايتها الترويج والدعاية لا اكثر ولا اقل.

واغلب الظن ان الكتابين لم ينتقدا لان صاحبة السيرة امرأة. والمرأة عندنا ما زالت مع كثير الاسف – نكرة في هذا المضمار في عرف الرجل، رجلنا المثقف؛ واما آراء المنتقدات فقد كانت معدومة لان اديباتنا اللبنانيات لا يجشّمن انفسهن مشقة المقارنة بله الدرس والتمحيص، وقد يجدن في قطعة صغيرة من الآهات الخافقة ما يعوضهن عن السهر الطويل وطلب الحقائق من مظانها. اما الآن وقد مضى على نفاد الكتاب وقت كاف، وها قد تخطى بعض متأدبينا حدود التأليف الى التفكير لنيل جائزه نوبل للآداب ولو من قبيل **الطموح للطموح**، فلم يعد بالامكان السكوت على مضض، والغصة بالقول الصراح، فان لادبنا علينا حقاً سنفيه له غير مشكورين، وان لجيلنا هذا الذي يتخبط بين شدقي هذه الفترة من الانتقال والبلبلة، واجبات تحتم علينا ان نقف حياله موقف النصير او المربي فنعدّ له مكانة مرموقة بين

«يجب ان تصان آثارنا الفكرية – وبصورة خاصة، تراجمنا لحياة الادباء – من التشويه والمسخ والخواطر الارتجالية، وحمى العفوية المستفحلة، والفوضى والسرقة ... بوضع النقاط على الحروف قبل ان يتمكن الداء ويعز البرء».

امم الارض، لذلك يجب ان تصان اول ما تصان آثارنا الفكرية وبصورة خاصة تراجمنا لحياة الادباء، من التشويه والمسخ والخواطر الارتجالية، وحمى العفوية المستفحلة، والفوضى، والسرقة، بوضع النقاط على الحروف قبل ان يتمكن الداء ويعز البرء.

ولنفتح الان كتاب (مي في حياتها المضطربة) على ضوء النقد الصحيح لنرى هل نهج فيه صاحبه نهج المترجم الحق والكاتب الوفي لأدبه، فجعل من مترجمته صورة حية لها، كما كانت ابان حياتها، ام انه اكتفى بالنزر اليسير مما قيل فيها وقيل عنها ومما خطته في مذكراتها في مستهل نشأتها الادبية وهي لما تزل حدثة السن، فكانت مع ذلك كثيرة الاعتداد بالنفس عميقة التفكير قد اكتملت لها عناصر الاتزان.

قال جميل جبر في معرض الحديث عن كآبة مي التي ردها الى تأثرها العقلي بتأثرها الشعوري متخيلا مرتجلا :

« وتطلعت الى المرآة ذات صباح تناجي نفسها الشرود فبدت لها غضاضة الصبا في اكمل حلقاتها وابهجها. وتراءى لها في الخيال — كذا — الغد الرهيب — يسم النضارة ساعة فساعة، فالقت بيدها تعبة عند موضع القلب وتمتمت متعضة (ما اقسى الزمن) » .

ولماذا يجب ان تتكهن مي بان غدها سيكون رهيباً ؟ فهل ثمة عقدة نفسية يعتمدها المؤلف في مي نقطة المحور الذي يدور عليها بحثه واستنتاجه ؟ ام انه احتفظ بها لنفسه لئلا يحمّل نفسه مشقة عناء التحليل فيطول الوقت ويتأخر الانتاج ؟

ثم يقول: « وماذا اقلق ميا وعذبها إلا وحشتها الجافة التي سعت عبثاً لان تبددها فتستقر، لقد كان اصدقاؤها وخلانها عديدين متنوعين، وكان متذوقو ادبها والمعجبون بها يتزايدون كل ساعة ولكنها لم تجد لا بين اولئك ولا بين هؤلاء من تطمئن الى وجوده دوماً فتنفتح اليه مغبوطة في نشوة الانخطاف ... »

فهل حقاً كانت مي عهدذاك، على هذه الحيرة والاضطراب والتضعضع وعدم الاستقرار، والوحشة المرّة والعذاب ؟ هل كانت في حاجة ملحة الى من تطمئن الى وجوده دوماً فتفتح له مغاليق نفسها الثرة في مثل هذه النشوة المستعرة ؟

ان شيئاً من هذا لم يقع لمي مطلقاً لاننا لم نقرأ لها شيئاً من هذا لا في مؤلفاتها — على وفرتها — ولا في منشوراتها ولا في رسائلها .. ولان من كان له امكانيات مي، واعتدادها الاصيل، ورسالتها التي اعدّت لها نفسها، ليس له ان يخشى الغد من ان يسم النضارة، فلقد استوفت حقها من الحياة كما لم تستوفه قبلها امرأة؛ وليست مي هي التي يجب ان تلقى بيدها تعبة عند موضع القلب وتتمتم ممتعضة : ما اقسى الزمن! بل ان لمي ان تتيه على الزمن نفسه، لانه لم يضن عليها لا بالذكاء الفذ ولا بالولاء لها، ولا بالحسن الجذاب، ولا بالقلم السيّال. ومع ذلك كان لها في الزمن ذاته فلسفة خاصة، فلسفة عميقة غير محدودة، واسعة الاجواء، — قمينة بالدرس على حدة — لا تمت الى القلب بصلة. وانما تمت الى التفكير فيما وراء الطبيعة (من أين والى أين) بصلات واسباب.

اما انها لم تطمئن الى احد متذوقي ادبها والمعجبين بها فذلك قول مردود من اساسه لان ميا في هذه الآونة — التي تحدث فيها المترجم عن كآبتها الصارخة — كانت منطلقة انطلاقة الربيع الفينان — كما تحدثنا آثارها — جمال صبا في اعتداد اصيل، وخصابة فكر في بيان لا تعوزه الرشاقة ولا تفوته الاناقة، وكانت الى ذلك مصدر الهام ومحجة اعتكاف لنخبة من عباقرة الشعر والادب والعلم، كاسماعيل صبري وشبلي الشميل، وولي الدين يكن، ويعقوب صروف، والجميل. منهم من طلب الود، ومنهم من طلب اليد ومنهم من تعبّد وتهجّد، وهي بين هؤلاء جميعاً، نفحة عبير معطار، وبسمة رجاء أليفة، وومضة فكر دائم النشاط جم الحيوية دائب العطاء والولاء، ولكن بمقدار يحفظ عليها سمتها، ولا يشين السمعة الطيبة، ولا ينال من الانوثة ذات الحفاظ المهيب.

ولنستمع إليها هنا في فقرات من رسالة مطولة الى يعقوب صروف تقول له فيها مدلة حيناً متحدية احياناً، معجبة به الاعجاب كله، نافضة جملة نفسها الحيّرة بين يديه :

« ولكن مالي وللفيلسوفين — تعني فولتير ودالمبير — أغبط الواحد منهما على الآخر — وانا قد اسعدتني الحياة بصديق مثلها احدثه واراسله واتلقى تأثيره الفكري العالي. » الى ان تقول :

« تجاهر بانك ناقم ساخط راغب في معاقبتي وتعنيفي ... وما هي ذنوبي؟ ليس من الضروري ان يكون لي ذنوب في عالم الوجود ما دمت راغباً في إيقافي موقف المتهم، فانك تخلقها من العدم — حتى المقدمة العظيمة — مقدمة كتاب الباحثة — لا تخلو من وخزة هنا ونغزة هناك، ولطمة هنالك. »

الى ان تقول معجبة بنفسها تياهة باختباراتها :

« وتلك المعرفة — معرفتها بالادب الغربي — جعلتني اسائل نفسي كلما قرأت مقالاً لبعض من يدعون اعاظم الكتاب وفطاحل الشعراء، وماذا وضع هؤلاء من ذاتيتهم فيما كتبوا، بل اين تلك الذاتية التي لا اجد لها اثراً ؟

ثم مالي انا اشرح ميولي وابرز سروري ؟ إن كان هنالك من يستحق

الملام فانت هو ، انت الذي تنصلت من الاسجاع والحواشي والزوائد يوم كانت هذه روح العصر ، لو اردت ان اقلد احداً لقلدتـــك انت . لكني اكره التقليد الذي يشوه المقلد ويمسخ المقلد ، وانا احب ان اكون انا انا في كتابتي .

يا لطيف ما هذه الكبرياء والدعوى ؟ هكذا ستقول انت .. يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد ! وهكذا اجيبك انا .

وهاك تهمة اخرى ، تقول في رسالتك انني انتظر اول اشارة لاعفيك من المقدمة ، كم انت شرير ساعة تقول ما لا تعتقد ! ولكني لا اريد ان اخاصمك ، واغفر لك ما جاء في الرسالة اكراماً للمقدمة .

اكتب اليك والشمس تنزل درجات الافق ، وقد سبحت غيوم المساء كما في بحيرات من العسجد والعنبر والزبرجد والياقوت . في جميع اطراف الافق تتوهج حرارة الربيع وتبدو يقظة الطبيعة .

هل ذهبت اليوم لشم النسيم ، ام اكتفيت بالسير في شارع عماد الدين؟ ربما كنت الآن سائراً في الخلاء ، تنظر الى هذا الغروب الساحر وتفكر بي» .

ثم لنستمع الى مي في هذه الطفرة الحلوة الممراح من نقد بارع مطوّل في الدكتور شبلي الشميل نشرته في مجلة سركيس سنة ١٩١٣ أقتطف فيها ما يلي :

«وقد فكرت طويلاً في ان أثأر من الدكتور الشميل فعـثرت في كتاباته على سلاح اصوبه نحوه الآن ، وهو قولي انه شاعر »

وتروح مي تستعرض بعض كتاباته فتحلل الشعر وتحلل النثر وتحلل العلم

صدر حديثاً في سلسلة

خوالد التراث الكلاسيكي

قصة مدينتين

لكبير كتاب الإنكليز

تشارلز دكنز

الرائعة العالمية الخالدة التي طالما تاق الادباء والمدرسون والطلاب الى ان يجدوها بين ايديهم في طبعة دقيقة كاملة بالحرف الواحد . انها قصة مدينتي لندن وباريس في عصر الثورة الفرنسية الكبرى ، قصة الظـلـم والاضطهاد ، والغدر والانسانية ، والحب والتضحية .

نقلها الى العربية
منير البعلبكي

الثمن ست ليرات — دار العلم للملايين

وتندد بالشميل لانه يقسو على الادباء فلا تتورع من اتهامه بالخلط بـين الادباء والمتأدبين ، وبين الشعراء والمشعوذين لانه ينقم على هؤلاء جميعاً في حين : « ان له تعبيرات جميلة وخيالات فخمة تتهادى بين اجرام المادة ، وقوة شعرية في تلك النفس التي تدعي احتقار الفنون ، قوة من القـوى الأولية اخفتها الحياة تحت طيات الاختبار الكثيفة ، وحجبتها كبرياء العلم وتعصبه وراء استار المادة غير انها لا تنفك باحثة عن منفذ تطل منه على عالم النور .

« فطبيبنا شاعر رغم ارادته ، وكاتب رغم ارادته ايضـاً ، لانه لا يكتب إلا في ساعات الغضب والتهيّج والاشمئزاز مما يظنه اعوجاجاً وضلالاً .

« وهذه المميزات ترفع الحجاب قليلاً عن شخصية شاعرنا الفيلسوف الدكتور الشميل الذي لا يريد ان يلقب بهذا اللقب ، وينفي الفلسفة عن نفسه بحدة تكاد تكون غضباً ، فهو اذن فيلسوف على رغم منه ، بل هو: هو ، على رغم منه ، ألا ترى في هذا الارغام المتواصل شيئاً من اخلاق الاطفال ؟

« طباع متعاكسة متناقضة ، غريبة في شدتها ولينها : هذا الرجل القاسي الذي يود ان يقبض بيديه على صواعق جوبيتر ليلقيها على رأس الهيئـة الاجتماعية مبيداً كل ما فيها من الشرائع والانظمة .. يقف متردداً بـين الشفقة والتوسل امام المجرم ويفكر قائلا : ما ذنب هذا المسكـين اذا اكسبته الوراثة جرائم الجرائم ? ثم لا يلبث ان يئن مع الاوتار منشداً :

فيا نوح الحمام على هديل   بكينا معه كل صد شريد
فما احناك من صوت شجي   وما اوفاه من خل ودود !

وتروح مي تنتقد ابياتاً شعرية للتمثيل نحس فيها حماسة المأخوذ وبراعة المعجب الى ان تنتهي قائلة :

« طويل صدى هذه الابيات في الروح، طويل عميق يتسرب تموجه في ثنيات المدارك والى خلايا الأفهام بينما اشباح الغناء تمر امام ناظري الخيال ببطء فخم للتلاشي في ابدية القوة الخالدة »

ويحضرني بهذه المناسبة بعض ما قاله الشميل في مي لدن زارها لاول مرة فقابلته غير محتفلة بحكمته ولا مبالية بعدائه للجنس اللطيف كما كان ينسب اليه ، حتى اذا ما قال لها انه قد طالما تشوق الى التعرف بها منذ زمن اجابته ان هذا التشوق متبادل ولكنها تتنكر له — اي الدكتور — لأنه عالم مادي وهي شاعرة روحية الميول . فما اسرع ما يرسل اليها في اليوم الثاني قصيدة نظمها فيها خلال تلك الليلة نفسها يعلق بذهني منها ما يلي :

كأني ليس لي قلب خفوق   محط الوحي او هدف النبال !

الى ان يقول :

اذا ما قتاطري الحب يوماً   ألا تدرين انك في خيالي !

ثم لننصت اليه في « الى الساحرة ايزيس » — اي اليها :

تقولين اني اسير الثرى   وانت تحومين حول السهى
وانك في ذا المحيط ترين   النفوس واني اريك الصدى
فراعك مني تصاب فـأنـ   شدت فينا اختلاف الهوى
تظنين اني فتنت بباد   وليس افتتاني بهذي النهى

كـأني نظرت بعينيك فيك وانت نظرت بعيني انا ..

ثم لنرَ ميا في معرض آخر كيف تتحدث عن ولي الدين يكن ، في مجلة الفجر ، ذلك الشاعر الذي ما أتت على ذكره الا احسست في نفسها غصة المكبر ولهفة الاليف ، قالت :

« وللالحان والالوان تأثير شديد في نفسه . قال لسماع فتاة تغني (وكأني بهذه الفتاة مي نفسها) بصوت خافت « هذه نسمات البوسفور « امسا تلك القطعة الموسيقية المرقصة المعروفة باسم « كارمن سيلفا » فلا يرى البيانو مفتوحاً إلا ويسارع طالباً ان نعزف له .

« وفي احدى زياراته لنا رأيت نظره جامداً بعيد وصوله . واذ سألته ما به قال «هذه» مشيراً الى زهرة لبلكية في ثوبي « يحزنني هـذا اللون الليلكي » فحاولت نزع الزهرة فقال : « لا تفعلي ، ارجوك ! يحزنني ان اراها ويحزنني اكثر من ذلك ان تنزع » وانشدنا ذلك المساء ابياتاً من شعره الحزين » .

اما على صورته فقد كتب اليها معاتباً :

كل شيء يا مي عندك غال غير اني وحدي لديك رخيص

فهل حقاً كان لديها ذلك الرخيص الذى تخيّل ؟ انه ليعلم انه لم يكن كذلك ابداً - وانها لتعلم هي ايضاً - أوليس هذا العلم هو بالنسبة اليه الشك الذى يلهب حنايا المحب ، وبالنسبة اليها هي ، عصمة الفتاة التي لا تمنح الا بمقدار لا يتعدى عندها حدود الالهام - إلهامه الشعر - وحدود هذا الود الذي تأنس به وتغتبط مستكينة النفس ؟

اما اسماعيل صبري فهو عندها « ينبوع صغير بـلوري المياه عذبها ، يرشح المرة البيت والبيتين والثلاثة الابيات ، وينتظم مرة اخرى تسلسله المكرر اللماع على انه غير فياض لا يدهش بروعته ولا يرهب بجلاله انما يجذب بحسنه المأنوس ويرضي ببساطته وجلائه ، وهل الطف من الينبوع الصغير في تدفقه الموزون بلا تهور ، وهل اقرب منه الى ارواء الظمأ ؟ » هي هذه الصفات ، يسيطر عليها دوماً الذوق الدقيق المصفى ، التي جعلت من صبرى باشا - على بضاعته الشعرية المحدودة - شاعراً كبيراً ، اذا نظم وقعت شاعريته من نفسك في مكانها الخاص بها وصارت جزءاً من حاستك الغنائية تتناولها حافظتك بلا اجهاد ، ويشربها قلبك كأساً منعشة قد تخالطها مرارة مستحبة غير انها لا تجد منك عطشاً ، ولا تقلق عندك غوراً ولا تبعث فيك هوس الطيران والغوص والمخاطرة .)

هذا هو اسماعيل صبري الذى لم ينظم في اخريات ايامه الا لمي ، وانه ليترك لها هذه الابيات قبيل موته لتكون لها تعلة ، وذكرى ذات اريج عطري .

يا مقر الغزال قد صح عندي الـ يوم اني اقتحمت منك عرينا
حسب عيني ما رابها من قلوب بات يغري بها السواد عيونا
وضلوع جاءتك وهي خـوال ثم عادت ملأى هوى وشجونا
ما الذي يبتغي غزالك مـني - بعد كوني عبداً له - ان اكونا
كلما قلت قد ابـل فؤادي ساورته الذكرى فزاد جنونا

واذا رافقنا مي خلال جولاتها النقدية - وما اكثرها من جولات محببات - في اصدقائها وخلانها ومتعشقي روحها ومن بينهم جبران الذي لم تخصه في هذا المضمار باكثر مما خصتهم ، نراها واثقة من نفسها ، معتزة بشخصيتها ، عامرة الايمـان بذاتيتها المستقلة فيما تقول وتشير وترتئي . اما روح الصراحة فيها فهي اقرب الى ظهـور السريرة منها الى الكبـت والحرمان . . ذلك الكبت الذى اعتمده جميل جبر في كتابيه العامل الاساسي «لجنونها المزعوم» وذياك الحرمان الذى وصمها بدون رادع او وازع - كما يصم اى انسان اية امرأة من نوع رخيص ، ملتهبة الميول ، جائعة الطبيعة ، جاهلاً او متجاهلاً ان العلم الحديث ينفي مزاعمه هذه ويبطلها لان مي كان له مثل امكانيات مي - الملموسة - ومثل مميزاتها لاستطاع ان يجد منفذاً رحب المجال لطبيعته الملحاح - هذا اذا خالفنا الحقيقة وسلمنا بوجود تلك الطبيعة الجائعة عند مي - ولوجـد منفساً لكآبته العنيفة يمكنه من الاستقرار .

اما نوع التشاؤم الذى اضفى على ادب مي هـذه المسحة الرومانطيقية من التفكير العميق فهو فلسفتها الخاصة في الحياة وحسب ، وليس هذه النزعة الجسمانية ... هذه النزعة التي ما فكرت فيها مرة تتلبس شخصية مي الفذة على هذا النحو المخزي الوقح - وعلى مرأى من الادباء العرب واسماعهم - الا شعرت بالضعة لما يخالطني من اليأس في امكانية وجود ادباء حقيقيين يضعون الحق نصب ناظريهم ، منقبين ، متريثين ، لا تأخذهم حمى العفوية ، ولا تؤثر فيهم شهادة المغرضين ، لان للادب كما للانسان ضميراً حياً يتجنب الاساءة ؛ ولأن ادبنا كذلك محسوب علينا وعلى تاريخه ، فان اخلصنا له احسنّا الى انفسنا والى الجيل المقبل ، وان اسأنا ، فتلك لعمري اساءة موقتة لا تضر الا بفاعليها ، ولئن دقت على افهام نقادنا اليوم ، فلا سبيـل الى فرضها على افهام ادباء الغد القريب .

جهان غزاوي عوني